سعدي الشيرازي في العالم العربي
الجزائر نموذجًا

أ.د. محمد علي آذرشب*

ملخّص

سعدي الشيرازي احترف السقاية في الشام لأنّه انتمى إلى سلسلة السقائين، وهي من سلاسل الفتوّة في التراث الإسلامي، وعاش لفتوته ينشد ويؤلّف ليوقظ المشاعر ويحيي النفوس، ويدعو إلى الوحدة الحضاريّة، وإلى الاعتدال، وإلى العزّة وإلى تربية الذوق الجمالي، وإلى روح المواساة مع الناس. وفي المقال استطراد لالتقاء طريف بين سعدي الشيرازي والفتوة والسقاية وكفّ العباس بن علي!!

سعدي الشيرازي

سعدي رجل ظهر في القرن السابع الهجري (وُلد سنة ٦٠٦هـ) بمدينة شيراز من بلاد فارس، يتحدّث بلغة تستولي على العقول والقلوب بنثرها وشعرها، وجدَ الناسُ فيه ضالّتهم التي تنشدها فطرتهم الإنسانيّة، في وقت تكالبت فيه الظروف السيئة على العالم الإسلامي لتؤدّي إلى هجوم المغول وسقوط الخلافة العباسيّة. وما كان هجوم المغول إلّا بعد أن توفّرت في المسلمين قابليّة الغزو، فقد تفشّت أمراض النزاعات الداخليّة والجهل، وأدّى كلّ ذلك إلى غياب الأهداف الكبرى والمثل العليا في المجتمع، وما ينجم عن ذلك عادة من حرص وطمع وذلّ واختلال في القيم.

* أستاذ في جامعة طهران azarshab@ut.ac.ir

وسعدي رأى ما رآه الآخرون من أمراض عصره، ولكنّه لم يقف أمامها موقف الخاضع العاجز المستسلم الذي يبرّرها بأسباب غيبيّة ويعزوها إلى القضاء والقدر، بل نظر إليها نظر طبيب قادر على أن يشخّص أسباب هذه الأمراض ويهبّ لعلاجها.

بدأ شرف الدين مصلح بن عبد الله سعدي الشيرازي أوّل حركته في انتقاله من الطريقة التقليديّة السائدة في عصره لتعلّم الدين إلى طريقة العاشقين في فهم الدين والحياة والمجتمع، والعاشق له معناه الكبير لدى العارفين، فهو المتحرّك الذي لا يقرّله قرار، يشدّه الجمال نحو هدف سام كبير، ويجعله مستعدًا لتقديم ألوان التضحيات في سبيل هذا الهدف. يشير إلى هذا الانتقال بقوله:

همه قبيله ى من معلمان دين بودند مرا معلّم عشق تو شاعرى آموخت

أي: «كل أفراد قبيلتي كانوا معلمين في الدين / ومعلّم العشق علمني أن أنشد الشعر».

هذا التحوّل أثّر على خطاب الشاعر، فقد أصبح إنسانيًّا جماليًّا عميقًا، كما دفعه هذا التحوّل إلى الخروج من دائرة بيئته الضيقة ليسوح في العالم الإسلامي، ويتعرّف على مختلف الثقافات، في العالم العربي وآسيا الوسطى وشرق آسيا، وليعود وهو محمّل بتجارب إنسانية واسعة، خلّدها في نثره وشعره.

جُمعت آثاره في مجموعة سمّيت كليّات، والكليّات لأيّ أديب تعني مجموعة ما تركه من أدب منثور ومنظوم.

وتضمّ كليات سعدي: «گلستان» أو روضة الورد، ويضمّ مجموعة من ذكريات الشاعر وقصصه ومواعظه، وهي مزيجة من النثر والشعر. وكتاب بوستان أو روضة العطر، ويتضمّن حكايات منظومة وقصائد في المديح، وكتاب غزليات ويتضمّن الطيبات، والبدائع، والخواتيم، والغزليات القديمة، والترجيعات، والملحقات، والرباعيات. وكتاب المواعظ وفيه القصائد الفارسية والعربية، والغزل العرفاني، ونصيحة الملوك ، والمجالس.

هذا الخطاب الإنساني لسعدي الشيرازي جعله شخصية عالمية خالدة، وذاع صيته على مرّ الأيام من شمال أفريقيا حتى الصين. ورأى فيه الأوربيون أنه مِلكٌ

للإنسانية جمعاء. هكذا قال عنه: آربري، وديدرو، وفولتير، ومدام رولان، ورينان.

وفي العالم العربي تُرجم گلستان وبوستان مرات، وترجمت مقتطفات من شعره، وكتبت عنه عشرات الكتب ومئات المقالات، وأقيمت بشأنه الندوات.

وفي هذا المقال سأقتصر على الجزائر، وأذكر من نشاطات هذا البلد عن سعدي ندوتين حضرتهما، أكتفي بالإشارة إلى الأولى وأفصّل القول في الورقة التي قدمتها في الثانية. الندوة الأولى عقدتها جامعة الجزائر ٢١ أبريل ٢٠٠١م، في قصر الثقافة بالجزائر العاصمة بحضور وزير التعليم العالي الجزائري ووكيل وزير الثقافة ورئيس مجمع اللغة العربية ورئيس جامعة الجزائر وبمشاركة جمع من الأساتذة من جامعة الجزائر وجامعة القسنطينة.

وكانت ورقتي تحت عنوان «الخطاب الإنساني لدى سعدي الشيرازي».

أما الندوة الثانية فكانت عن «الفتوة» في التراث الإسلامي وعقدت بمدينة تيزي أوزو في الأيام ١٤ ١٦ ديسمبر ٢٠٠٨م. وفي هذه الندوة قدمت ورقة عن الفتوة في التراث الفارسي اجتمعتْ فيها بالصدفة مفرداتٌ لم تكن منتظمة في ذهني وهي: فتوة السقائين -وفتوة سعدي- وكفّ العباس بن علي، وهذا ما سأذكره لاحقًا.

سعدي الشيرازي والفتوة

حول الفتوة في إيران كُتبت فصول ومؤلفات مستقلة بالعربية وبالفارسية، وتداخلت الكتابات عن التصوف والفتوّة. وكبار الصوفية ذهبوا إلى أنّ التصوف للخواص والفتوّة لعامّة الناس (سعيد نفيسي/ ١٥٠). وفي الفارسيّة اشتهرت خمسة مؤلفات باسم فتوت نامه أو كتاب الفتوّة هي:

١ فتوت نامه لنجم الدين أبي بكر محمد بن مودود الظاهري التبريزي المعروف بنجم الدين زركوب المتوفى سنة ٧١٢هـ.

٢- فتوت نامه لكمال الدين عبدالرزاق الكاشاني المتوفى سنة ٧٣٠ أو ٧٣٥هـ-.

٣- فتوت نامه لعلاء الدولة ركن الدين أبي المكارم محمد بن شرف الدين بن محمد بيابانكي (٦٥٩ ٧٣٦هـ).

٤- فتوت نامه لأمير سيد علي بن شهاب الدين بن مير سيد محمد الحسيني

الهمداني (٧١٣ ٧٨٦هـ).

٥- فتوت نامه سلطاني لكمال الدين أو معين الدين حسين بن علي الكاشفي البيهقي الهروي الواعظ المعروف بالملا حسين الكاشفي المتوفّى في ٩١٠هـ. وهو أوسع مؤلّف في بابه.

الأدب الفارسي يغلب عليه طابع التصوّف أو العرفان ولذلك يكاد كل شعراء الفارسية يتناولون الفتوة في أبيات أو قصائد مستقلّة ومن أشهر من نظم في الفتوة فريد الدين العطار النيسابوري العارف الإيراني المشهور وله فتوت نامه تشتمل على ٨٢٢ بيتًا.

وملخص ما جاء في جميع هذه المؤلفات كما يذكر هنري كوربن هو «إنّ صاحب الفتوة يتحرك نحو الله ويعمل في سبيل الله (لله وفي الله) والفتى المعنوي هو الذي وصل إلى مرحلة حبّ الله (صاحب الولاية)، ويتحرك ويعمل في سبيل الله وعلى طريق الله وبحول الله.

إنه مثل إبراهيم يحمل من الله رسالة الهداية إلى الناس، ويبدأ من المراحل البسيطة للفتوة، ويتدرّج ليصل إلى المراحل العليا التي هي حق اليقين» (كوربن / ٢٧).

وبتلخيص آخر: «إنّ كلّ نصوص (كتب الفتوة) تؤكّد على أنّ الفتوة إحياء للفطرة في خلوصها وجلالها الأوّلي» (كوربن / ٩٧).

سعدي العاشق شعره طافح بمعاني «الفتوة» غير أنّه غير معروف بانتسابه إلى أصحاب الفتوّة، لكنّنا نرى في فتوت نامه سلطاني للملا حسين الواعظ الكاشفي السبزواري (المذكور في مؤلفي الفتوات الفارسية) إشارتين صريحتين إلى انتساب سعدي إلى أصحاب الفتوة من جماعة «السقائين».

بعد أن يذكر فتوة السقائين وما يرتبط بهم من رموز يرى أنّ هذه السيرة مستلهمة بعد الأنبياء من أولياء الإسلام.. من علي بن أبي طالب عليه السلام ثمّ من ابنه العباس بن علي حيث حمل القربة في صحراء كربلاء كي يروي عطش أهل البيت ثم يقول ما ترجمته:

«إذن كلّ من يمتهن السقاية عاشقًا لشهداء كربلاء فهو متابع وموافق للعباس بن علي (ع)، إذ إنّ (العباس) في مقدمة سقّائي الأمّة، ومن لا يعرف هذا المعنى فليست سقايته بمسلّمة. وبعض أسناد السقاية في هذه الأمّة بعد الأمير والعباس تصل إلى سلمان الفارسي الذي كان يحمل القربة على كتفه دائمًا ويأتي بها إلى بيت الزهراء سلام الله عليها. والشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي فعل ذلك أيضًا، وهذه الجماعة تسمّى الإحيائيّين» (الكاشفي/ ٢٩٦).

ثم إنّ الكاشفي يذكر سند فتوته ويذكر شيخ طريقته شيخ الإسلام أحمد بن محمد القايني وهو عن تاج الدين علي دهقان.

ثم يذكر سند علي دهقان فيقول ما ترجمته إنّه «ابن مولانا محي الدين القمي، وهو ابن مولانا الخواجوي الكرماني وهو ابن مولانا حسن الكاشي، وهو ابن مولانا فضل الله الهروي وهو ابن پير محمد البغدادي، وهو ابن الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي، وهو ابن الشيخ شهاب الدين الكبير، وهو ابن جوانمرد العارف» ويستمر في ذكر سلسلة النسب حتى يوصلها إلى علي بن أبي طالب (الكاشفي/ ١٢٥).

والملاحظ أنّ كلمة «ابن» هنا تعني البنوّة الروحية لا النسبية. ولعل أقدم سند في باب انتماء سعدي إلى السقائين ما يذكره صاحب شدّ الإزار إذ يقول: «وصحب (سعدي) الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي، وكان معه في السفينة، وقيل كان يسقي الماء ببيت المقدس وبلاد الشام مدّة مديدة حتى رأى الخضر عليه السلام فأرواه من زلال الأفضال والإنعام» (شد الإزار/ ص ٤٦١).

جدير بالذكر أنّ امتهان سعدي للسقاية لم يكن من باب الكسب والحصول على المال، إذ ثمّة قرائن كثيرة تدلّ على أنّ سعدي كان يتمتع بثروة وجاه وجلال، وكان لبيته حجّاب (شفيعي كدكني/ ١٣). فالسقاية كانت إذن من «الفتوة» وترمز هذه المهنة إلى إغاثة اللهفان وإرواء الصديان، وخدمة بني الإنسان.

محاور خطاب الفتوة في أدب سعدي

ذكرنا أنّ الفتوة حمل رسالة الهداية إلى الناس، من خلال خدمتهم. وسعدي الشيرازي إضافة إلى امتهان السقاية حمل مهمّة إيقاظ الأمة عن طريق خطابه

الإنساني الفطري. الخالدون في التاريخ هم الذين يخاطبون فطرة الإنسان. وفطرة الإنسان ثابتة)لا تبديل لخلق الله(، وهي دائمًا تنشد الجمال والكمال. وشاعرنا سعدي كان جميلًا عذبًا في أسلوبه ومعلّم الكمال في مضمونه.

موسيقاه في نثره وشعره لا تزال تحتلّ مركز الصدارة في الأدب الفارسي، بل في الأدب العالمي، حتى عند أصحاب الحداثة وما بعد الحداثة. لقد جاء بعده من نال شهرة واسعة في زمانه، لكنّه ما لبث أن اختفى من الساحة بعد زوال الظروف الخاصة التي أدّت إلى اشتهاره، أمّا سعدي فلا يزال من الخالدين، وهذا درسٌ لكلّ الأدباء والفنانين الذين يريدون أن يقدّموا العطاء الخالد لأمتهم.

في كتابه گلستان يشير إلى أنّ رسالته الأدبية تجاوزت -حتى في عصره- حدود المكان، وأصبحت أحاديثه متداولة على كلّ لسان، فذكره الجميل تناقلته الأفواه، وكلامه سرى في بسيط الأرض، وحديثه قصب الجيب الذي يرتشفه الناس كقصب السكر، ورقعة منشآته تتداولها الأيدي كورقة ذهبية[1].

١- الدعوة إلى وحدتنا الحضارية

بدايةً أذكر أنّ العالم الإسلامي ينتظره مستقبل عظيم على الساحة العالمية إنْ أحسنَ استعمال ما يمتلكه من مقوّمات حضارية. إنّ بريق التطوّر التقني في السلاح والارتباطات وفي سائر المجالات قد بهر وغطّى على عظمة وجود أمتنا الحضاري. لكنّ النور الذي سيبقى هو نور الحضارة، والحضارة الإسلامية لا ينافسها منافس على الساحة العالمية.

لا نذهب إلى ما ذهب إليه هنتنغتون في صراع الحضارات، ولا نؤمن بما يقوله، ولا نعتقد أنّ مايجري في الساحة العالميّة هو صراع بين حضارات، لأنّ المصارع القوي اليوم على الساحة العالمية لا يمتلك حضارة.. بل إنّه ينطلق من عقدة نقصه الحضاري ليشيع في العالم الدمار، وليقضي باسم عولمة خاصة به على حضارات العالم، وإذا كان توجّهه الأول اليوم نحو العالم الإسلامي، فلأنّه مهدُ الحضارات

١. النص الفارسي: ذكر جميل سعدي كه در افواه عوام افتاده است، وصيت سخنش كه در بسيط زمين رفته، وقصب الجيب حديثش كه همچون شكر مى خورند، ورقعه ي منشآتش كه چون كاغذ زر مى برند.. (كليات سعدي ص ٤).

الإنسانية، ولأنّ المنظّرين الاستراتيجيين أوحوا له بأنّ الحضارة الإسلامية مؤهّلة لأن يكون لها الدور الريادي على الساحة العالمية.

والعودة إلى وحدتنا الحضارية ما عادت ضربًا من المستحيل كما كان بعضهم يوحي بذلك، لأنّ الوحدة الأوروبية أثبتت إمكان توحيد شعوب نشبت بينها في القرن الماضي على الأقل حربان عالميتان، كما أنّ وحدتنا الحضارية ضرورة حتمية لبقائنا في عالم التكتلات. وكلّ مقومات الوحدة الأساسية قائمة بين ظهرانينا ونحتاج إلى تفعيلها.

أعود إلى سعدي الشيرازي لأقول إنّه من رموز وحدتنا الحضارية. فهو إضافة إلى خطابه الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان استطاع أن يقدم النموذج الرائع للامتزاج الحضاري بين الإيرانيين والعرب.

هذا الامتزاج نشاهده في ما خلّفه لنا من تراث. مؤلفاته مزجت بين العربية والفارسية بحيث لا يمكن أن يطالعها أحد إلا أن يكون ملمًّا باللغتين معًا. ولم يكن ذلك مصادفة، بل تعمّد إلى ذلك في ما أعتقد ليثبت أنّ الامتزاج هذا يبلغ باللغة إلى ذروة الكمال.

كثرة التضمينات القرآنية وكثرة العبارات والأبيات العربية التي تتخلّل نثره وتلمّع شعره، والقصائد العربية التي تحتويها كلياته تثبت أنه أراد التوفيق بين اللغتين العربية والفارسية ليخرج بنصوص تجمع بين الاثنين في إطار جميل خلّاب بعيد عن أي تكلّف.

في كتابه گلستان على سبيل المثال ترى في الصفحة الأولى نثرًا مليئًا بالمفردات العربية: مِنّة.. عزّوجلّ... طاعة.. موجب.. قرب.. شكر.. مزيد.. نعمة.. نفَس.. ممدّ.. حياة.. مفرّح.. ذات.. واجب.. تقصير.. عذر.. رحمة.. حساب.. ناموس.. فاحش.. وظيفة.. خطأ.. كريم.. خزانة.. غيب..وظيفة.. محروم.. نَظَر.. فرّاش.. فرش.. داية.. بنات.. نبات... خلعة.. قباء.. ورق.. أطفال.. قدوم.. موسم.. ربيع..و...

وترى آية هي قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].. وهكذا تستمر الصفحات على هذا المنوال تتخللها أبيات بالعربية مشفوعة

بأبيات في الفارسية.

والعربية في كليات سعدي نراها:

- في المفردات العربية الكثيرة في نثره.
- وفي أبياته العربية المتناثرة خلال نثره.
- وفي قصائده العربية التي أفرد لها المحققون قسمًا خاصًا.

تبدأ أولها بقوله: (فروغي / ٧٣)

الحمد لله رب العالمين على ما درّ من نعمة عزّ اسمه وعلا

وهي في ذكر الله ونِعَمه.

والثانية في رثاء بغداد والمعتصم بالله بعد هجوم المغول ومطلعها: (فروغي / ٧٣- ٧٧)

حبستُ بجفنيَّ المدامع لا تجري فلما طغى الماء استطال على السكر

وتزيد على تسعين بيتًا.

والثالثة في مدح نور الدين بن صياد ومطلعها: (فروغي / ٧٧ ٧٨)

ما دام ينسرح الغزلان في الوادي احذر يفوتك صيد يا ابن صيّاد

عدد هذه القصائد العربية يربو على العشرين، وأكثرها في الغزل كما ذكرنا، ومن غزله العربي قوله: (فروغي ٨٧):

يا نديمي قم تنبّه واسقني واسقِ الندامى اسقياني وهدير الرعد قد أبكى الغماما

وشفا الأزهار تفترّ من الضحك ابتساما قل لمن عيّر أهل الحبّ بالجهل ولاما

لا عرفت الحبّ هيهات ولا ذقت الغراما

ونرى العربية في ملمّعاته نظير قوله: (فروغي / ٣٧٧)

وقتها يكدم برآسودي تنم[١] قال مولائي لطرفي لا تنَمْ

اسقياني ودعاني أفتضحْ عشق ومستوري نياميزد بهم[٢]

ما بمسكيني سلاح انداختيم[٣] لا تحلّوا قتلَ من ألقى السّلَم

١. بين آونة وأخرى دع جسمي يسترحْ.
٢. العشق والستر لا يجتمعان.
٣. نحن لمسكنتنا ألقينا السلاح.

قد ملكت القلب ملكًا دائمًا خواهي اكنون عدل كن خواهى ستم[1]

وليست مظاهر الوحدة الحضارية عند سعدي متجلية في الامتزاج اللغوي بين العربية والفارسية فحسب، بل أيضًا في ما يعرضه من قصص حقيقية أو رمزية دارت في بلاد عربية أو غير عربية أحيانًا من العالم الإسلامي.

فتجواله في العراق والشام ومصر والجزيرة العربية أمدّه بخصب حضاري في شعره ونثره. في أحاديثه عن الشام مثلاً يتكرر ذكر دمشق والقدس وحلب وطرابلس، ويذكر عنها قصصًا فيها عبرة وتذكير.

٢-الخطاب الإنساني المعتدل

حضارتنا تقوم على أساس الخطاب الإنساني العام، ومخاطبة الإنسان وتكريمه بما هو إنسان. كثير من الآيات القرآنية تبدأ بعبارة: (يا أيّها الناس) ومنها آية الدعوة إلى التعارف بين الشعوب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والنصوص الدينية الأخرى تؤكد أنّ الإنسان أخو الإنسان، شاء أم أبى. وتؤكد أنّ كل أبناء البشر من بني آدم، وآدم من تراب، فلا تفاضل ولا تفاخر في الأنساب والأعراق، والتفاضل عند الله -لا عند البشر- بما يقطعه الإنسان على طريق كماله، وهو الذي عبّرت عنه الآية بالتقوى.

وعلى الصعيد العملي انفتحت الحضارة الإسلامية على لغات الشعوب وثقافاتهم، ولم تفرض اللغة العربية -مع قداستها- على غير العرب، ولا أدلّ على ذلك من بقاء اللغة الفارسية إلى جوار اللغة العربية في إيران، بل من إقبال القبائل العربية المهاجرة إلى إيران على تعلم اللغة الفارسية، حتى أصبح الجيل الثالث منهم لا يعرف اللغة العربية إلا عن طريق التعلّم. وهكذا الموقف من الديانات الأخرى، كان موقف احترام واعتراف، والدليل على ذلك تعايش المسلمين مع المسيحيين واليهود والزرادشتيين حتى يومنا هذا، رغم استفزازات الحروب الصليبية وممارسات الحركة اليهودية العالمية التي أنجبت الصهيونية.

١. إن شئت أن تعدل الآن أو تجور.

واشتهر سعدي برفع هذا الصوت الإنساني في أدبه حتى عُدّ من شعراء الإنسانوية، واشتهر خاصة بقوله: (فروغي / ٢٥):

بنی آدم اعضای یکدیگرند — که در آفرینش زیك گوهرند
چو عضوی بدرد آورد روزگار — دگر عضوها را نماند قرار
تو گر محنت دیگران بی غمی — نشاید که نامت نهند آدمی

أي: «بنو آدم جسدٌ واحدُ — إلى عنصر واحدٍ عائدُ
إذا مسّ عضوًا أليم السقام — فسائر أعضائه لا تنام
إذا أنت للناس لم تألم — فكيف تسميت بالآدمي»؟!

بهذه الروح الإنسانية نظر إلى العرفان، فذهب إلى أنّ العارف أو الصوفي هو الذي يخدم الناس لا الذي يختار العزلة والاعتكاف، ويطلب من كلّ الناس حتى الحكام أن يتخلّقوا بأخلاق الدراويش:

«ليست العبادة سوى خدمة الناس / ليست بالتسبيح والسجادة وارتداء الدلق / ابقَ أنت على عرش سلطنتك / بأخلاق طاهرة وكن درويشًا».

ويرى أنّ المعتكفين في الخانقاه لا نفع فيهم، وأنّ العارف لا بدّ أن يتزوّد بالعِلم الذي يخدم فيه الناس، يقول: (فروغي ٨٠ ٨١):

صاحب دلی بمدرسه آمد زخانقاه — بشکست عهد صحبت أهل طریق را
گفتم میان عالم و عابد چه فرق بود — تا اختیار کردی از آن این فریق را
گفت: آن گلیم خویش بدر میبرد زموج — وین سعی می کند که بگیرد غریق را

أي: «عارف جاء من الخانقاه إلى المدرسة / وقطع عهد الصحبة مع أهل الطريقة / قلت: ما الفرق بين العالم والعابد / حتى جعلك تختار هذا الطريق؟ / قال: ذاك ينقذ سجادته من الموج وهذا يسعى للأخذ بيد الغريق».

كما أنّ حضارتنا دعت دائمًا إلى الوسطية، وإلى الابتعاد عن الإفراط والتفريط، فأمتنا الوسط مدعوة إلى أن تكون شاهدة، والشاهد لا ينحاز إلى طرف، بل يسير على الجادة الوسطى، والانحياز إلى طرف هو التطرّف، وهو مرفوض.. وهي مدعوة إلى الاعتدال وإلى الطريق المستقيم.

وسعدي عاش في عصر الإفراط بين المدرسة والخانقاه، أي بين العلم والدروشة، فدعا إلى عرفان مقرون بالعلم والفكر والحكمة يقول: (فروغي / ١٠)

بيندیشد، آنگه بگوید سخن　　سخندان پرورده پیر کهن
نکو گوی، گردیرگوئی چه غم　　نزن تاتوانی بگفتار دم
بیندیش وآنگه برآور نفس　　وزان پیش بس کن که گویند بس
بنطق آدمی بهترست از دواب　　دواب از تو به گر نگوئی صواب

أي: «إن الشيخ المعمّر، البليغ المربّي / يفكر ثم يتكلّم / لا تنطق بغير تروّ وتأمّل / أحسن القول، وماذا يضيرك إن أبطأتَ في الكلام؟ / فكر ثم افتح فمك / واسكت قبل أن يقال: كفى! / إنّ الآدمي بالنطق أفضل من الدواب / والدواب خير منك إن لم تقل الصواب».

ويقول بشأن السلوك المقرون بالحكمة: (فروغي / ١٠)

«لقمان را گفتند: حکمت از که آموختی؟ گفت: از نابینایان که تا جای نبینند پای ننهند. قدّم الخروج قبل الولوج، مردیت بیازمای وآنگه زن کن».

أي: «قيل للقمان الحكيم ممّن تعلّمت الحكمة؟ قال: من العُميان، فإنهم لا يضعون القدم حتى يعرفوا المكان. (قَدّم الخروجَ قبل الولوج) جرّب رجولتك ثم تزوّج».

والدعوة إلى الخطاب المعتدل نراها في شعر سعدي حين يتحدث عن الصمت والكلام، فلا الصمت المطبق مطلوب ولا الهذر الكلامي، فالصمتُ له وقته، والكلام له وقته. يقول: (يوسفي / ٥٣):

اگر چه پیش خردمند خامشی ادب است　　به وقت مصلحت آن به که در سخن کوشی
دو چیز طیر عقل است: دم فروبستن　　به وقت گفتن، وگفتن به وقت خاموشی

أي «ولو أن الصمت في رأي اللبيب من الأدب / لكنك اجتهد في أن تتكلم حين تقتضي المصلحة / شيئان من خفّة العقل: السكوت / في وقت الكلام، والكلام في وقت السكوت».

وما أحوجنا اليوم إلى أن نخطط لحياتنا الفردية والاجتماعية في الكلام والسكوت،

كي لا نقع في إفراط الهذر أو تفريط الإعراض عن قولة الحق.

والاعتدال نراه أيضًا في موقفه المذهبي، ولعل هذا الموقف استلهمه من أستاذه الغزالي. فالغزالي لم يتعصّب لمذهب معين. يقول في رسائله الفارسية ما ترجمته: «أسير في المعقولات على مذهب البرهان وما يقتضيه الدليل العقلي. وفي الشرعيات على مذهب القرآن، ولا أقلّد أحدًا من الأئمة، فليس للشافعي عليّ عهد ووصية، ولا لأبي حنيفة حجة وسند»[1].

وليس من شك أنّ دراسة سعدي كانت على يد أساتذة من أهل السنّة، وفي كليّاته ما يشير إلى أنه سنّي المذهب، ولكنك ترى في هذه الكليات حديثًا عن علي بن أبي طالب وعن أهل البيت ما يوحي أنه شيعي، والمحصلة من كل ذلك أنه أراد أن يتجاوز المذهبية في نهجه، ويقف الموقف الذي يمليه عليه فكره وشخصيته المستقلة، لا التقليد الأعمى.

نحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى هذا الاعتدال في الموقف المذهبي. بحاجة إلى تفهم السنّة بأنها التزام بسنّة رسول الله (ص)، وهو التزام واجب على كلّ المسلمين، عندئذ يكون كلّ المسلمين سنّة، وأن نفهم التشيع بأنه ولاء لآل بيت رسول الله (ص)، وهو ولاء أوجبه القرآن الكريم ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، عندئذ يكون كلّ المسلمين شيعة، وما عدا ذلك فهو إما خلافات تاريخية لا علاقة لنا بها، وإما اختلافات اجتهادية طبيعية بين البشر، أجازها الإسلام وشجّع عليها.

٣- الدعوة إلى العزّة

المجتمع البشري حيّ بعزّته فإذا ذلّ مات.. هذه حقيقة تؤكدها كل الدراسات التاريخية والاجتماعية، وتثبتها حقائق الواقع الراهن، من هنا فإن كلّ الأنبياء والمصلحين دعوا إلى صيانة عزّة الإنسان وكرامته على ظهر الأرض، كي يستشعر الحياة، ويسير على طريق استخلاف الله في الأرض وما يتطلبه هذا الاستخلاف من

١. النص الفارسي: در معقولات مذهب برهان، وانچه دليل عقلي اقتضاء كند. وأما در شرعيات مذهب قرآن. وهيچ كس را از ائمه تقليد نمى كنم، نه شافعي برمن خطى دارد، ونه ابوحنيفه برمن براتي مكاتيب فارسي غزالي به تصحيح عباس اقبال، ص ١٢.

إبداع وابتكار واستثمار لمواهب الطبيعة وكنوزها.

وسعدي بأسلوبه الأدبي الرائع جَهَد لأن يحافظ على روح العزّة في مجتمعه بعد أن تكالبت عليه أنواع الظروف لإذلاله.

وأهم وَترضرب عليه لصيانة روح العزّة في المجتمع هو إنقاذ الناس من التهافت على الدنيا كتهافت الذباب على قطعة الحلوى. وإيقاظ العقول والقلوب على حقيقة هذه الحياة التي لا تبقى لأحد. وهذا لا يعني أنه دعا إلى ترك الدنيا، بل دعا إلى ممارسة الحياة ممارسة مترفعة عن الدنايا وعن الذاتية والأنانية، وعن الحرص والطمع، وعن كل العوامل التي تخلق السلبيات في العلاقات الاجتماعية، وتحول دون تفتّح مواهب الإنسان وكفاءاته ودون العطاء الاجتماعي العام. دعا إلى أن لا يتحول الإنسان إلى دودة تعيش في الظلام، لا تعرف إلّا ما حولها، ولا تعمل إلا لإشباع نهمها الغريزي.

نراه في حكاياته بكتاب گلستان يخاطب النفس الإنسانية بأساليب مختلفة لينتشلها من وهدة الهبوط ويرفعها إلى الارتباط بالكون الفسيح وخالقه.

يقول في الباب السابع: «سمعت أحدًا من الشيوخ المربين كان يقول لمريد: أي بني! لو كان ارتباط ابن آدم بالرازق بقدر ارتباطه بالرزق لارتقى على الملائكة في المقام».

وفي هذا المضمار ينشد أحيانًا بيتًا بالعربية فيقول:

بئس المطاعم حينَ الذل يكسبها القِدر منتصب والقَدرُ مخفوضُ

وأحيانًا ينشد بيتًا بالفارسية يقول:

هركه نان از عرق خويش خورد منت از حاتم طائی نبرد

أي: «كلُّ من يأكل الخبز من عمله / لا يتحمل المنّة حتى من حاتم الطائي».

وأحيانًا ينشد قطعة شعرية يقول:

«إذا أردت الغنى، لا تطلب غير القناعة / فإنّها دولة هنيّة / إذا نثر الغني الذهب بحجره / فحذار أن تنظر إلى نواله / فقد سمعت كثيرًا من الأكابر (يقولون) / إنّ صبر الفقير خير من بذل الغني».

وفي كتابه بوستان خصص بابًا للقناعة يدعو إليه بقوله مثلاً:

- «اقنعي أيتها النفس بالقليل / حتى تري السلطان والفقير متساويين».
- وابغ جوفًا طاهرًا أينما تذهب / فإنّ البطن لن يملأه إلّا التراب».
- النفس الأمارة تحيل المرء ذليلاً / فلا تطعها إن كنت عاقلاً».

وفي قطعاته الشعرية يكثر من التأكيد على عزّة النفس، وفي إحداها يصوّر أصدقاءه يقولون له:

«لماذا أنت يا سعدي لا تتحرك للحصول على المال والمتاع؟ / فأنت تتربع على عرش الشعر، فلماذا تعيش كما يعيش المرتاضون؟ / لو مدحت قليلاً فستنال الحظوة / وصاحب الفن إن كان معدمًا فهو مغبون، ولا يقدر أن يكسب ودّ الإخوان».

ثم يجيبهم: «لا أستطيع أن أرفع حاجتي إلى هذا المالك وذاك الثري / فهذا من فعل المتكدين / لو طُلب مني أن آخذ إبرة من اللئام / لتحولت هذه الإبرة إلى إبر على جلدي مثل القنفذ / لقد قلتَ: إنّ رضا الصديق لا يتيسّر إلّا بالمال / وهذا أيضًا خلاف المعرفة والرأي الصحيح / فألف كنز ثمين يعادل حبّة من الفن / والمنّة بعد ذلك على المعطي، والحيف عَلَيّ».

وهذه القطعة الشعرية تذكرنا بأديب إيراني أخر هو علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ)، فقد دعا جميع ذوي القلم والفن أن يحافظوا على شرف علمهم إذ قال:

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنّما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
إذا قيل: هذا مَنْهَلٌ قلتُ: قد أرى ... ولكنّ نفسَ الحرّ تحتمل الظّمَا
ولم أقضِ حقّ العلم إن كان كلّما ... بدا طمعٌ صَيّرته لي سُلّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مُهجتي ... لأخْدُمَ مَنْ لاقيتُ لكنْ لأخدَما
أأشقى به غَرْسًا وأجنيه ذِلّةً ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزَما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعُظّما
ولكن أهانوه فهانَ ودنّسوا ... محياه بالأطماعِ حتى تجهّما

٤- تربية الذوق الجمالي

ذكرنا أنّ سعدي الشيرازي عاشق بالمعنى العرفاني، والعاشق بهذا المعنى هو

الـذي يغلـي صـدره بالمشـاعر النبيلـة التـي تدفعـه إلـى حـبّ الجمـال والكمـال، من هنـا فالعاشـق لا يسـتقرّ ولا يخنع ولا يستسـلم للظـروف، بل يتحرك علـى الرغم من كل الصعـاب علـى طريـق الجمال.

وعلـى العكـس من العاشـق الإنسـان المتبلّد الإحسـاس، الضعيف الهمّـة، الذي لا يهتـزّ أمام السـحر ولا يطرب أمـام الجمال.

وتربيـة الـذوق الجمالي هـدف كل الأنبيـاء والمصلحين، لأنه يدفع الإنسـان للحركة نحـو الجمـال المطلـق ويجعل الكائن البشـري مُعرضًا عن القبائح والسـيئات.

نحـن اليـوم بأمس الحاجـة لتربية الـذوق الجمالي لشـبابنا لكي يطلبـوا الجمال في كل مجـالات حياتهـم، ويعرضـوا عـن القبيـح فـي المظهر والسـلوك. والـذوق الجمالي يبعـد الشـباب عـن الوقـوع فـي مسـتنقع الرذيلـة، لأنّ الشـاب -إن تحلّـى بالـذوق الجمالـي- يسـتطيع أن يفهـم قبـح الرذائـل، ويفهـم الفـرق بيـن الجمـال الحقيقـي والجمـال السـرابي الخـدّاع.

وهـي مسـألة نحتاج إلـى الوقوف عندها طويـلاً، لكنّا نكتفي بهذه الإشـارة ونعود إلى سـعدي الشـيرازي الـذي سـعى في ما سـعى إلـى أن يسـتثير الـذوق الجمالـي الفطري فـي مجتمعـه، الذي تكالبت فيه ظروف سـحقت هـذا الذوق وإماتتـه، بفعل الأوضاع الاجتماعية السـيئة.

هـو أولًا يكـرّر الدعـوة إلـى التأمـل فـي مظاهـر الطبيعـة ومـا فيهـا مـن جـلال وجمـال وأسـرار، وإلـى التعمّـق بمـا وراء الظواهـر مـن علاقـات تربـط كل الكون بهـدف تكاملي واحـد. يقول:

بذكرش هرچه بينى در خروش است ولى داند درين معنى كه گوش است

نه بلبل برگلش تسبيح خوانيست كه هر خارى بتسبيحش زبانيست

أي: «كل ماتراه يموج بذكره / لا يفهم ذلك إلا القلب السـميع / ليس البلبل فحسـب يسـبّح على وردته / بل كل شوكةٍ هي لسـانٌ ينطق بتسبيحه».

والقلـب الـذي يسـتطيع أن يتفهّـم حقائق الأشـياء هـو القلـب الذي يخفق بالعشـق لا القلـب المتبلّـد الجامـد. كلّ مظاهـر الطبيعـة تدعـو الإنسـان إلـى أن ينفتـح قلبـه

وينصقل ذوقه، بل لقد عُرِف عند العرب عن الجَمَل بأنه يطرب للصوت الجميل، فما بال الإنسان لا يهزّه الجمال؟!

يقول سعدي: (فروغي / ٦٩)

دانی چه گفت مرا آن بلبل سحري؟ تو خود چه آدمی کز عشق بی خبری

اشتر بشعر عرب در حالتست وطرب گر ذوق نیست ترا کژ طبع جانوری

أي: «أتدري ماذا قال لي البلبل في السحر؟ / أي إنسان أنت يا مَن لا معرفة لك بالعشق؟!/ الجمل في الشعر العربي له ذوق وطرب / وإذا لم يكن لك ذوق فأنت حيوان معوجّ الطبع».

ثم يردف سعدي هذين البيتين ببيت عربي فيقول:

وعند هبوب الناشرات على الحمى تميل غصون البان لا الحجر الصلد

يضع سعدي مواصفات للعاشقين منها أنهم لا يملّون الطلب والبحث للوصول إلى الجمال، يقول: (الهنداوي / ٤٠٠)

چو یعقوبم ار دیده گردد سپید نبردم ز دیدار یوسف امید

طلبکار باید صبور وحمول که نشنیده ام کیمیاگر ملول

چه زرها بخاك سیه در کند که باشد که روزی مسی زر کند

أي: «فلئن ابيضّت عيناي، كما ابيضّت عينا يعقوب / فلن أقطع الأمل، من رؤية يوسف / ولا بدّ للطالب أن يكون صبورًا قادرًا على التحمّل / إذ لم يُسمع أن كيماويًا (ساعيًا للحصول على الذهب من معادن أخرى) أصبح ملولاً / فما أكثر ما ينفقه من مال وذهب / لعلّه يومًا يستطيع أن يحوّل النحاس إلى ذهب».

ومن صفات العاشقين أنهم يشعرون -رغم ثقل أعباء العشق- بالبهجة والسرور والحبور.

وسعدي مبتهج دائمًا، لأنه يعيش في عالم مبتهج بخالقه، وسعدي عاشق لكل العالم، لأنّ كل العالم من فيض المحبوب. يقول:

بجهان خرّم از آنم که جهان خرّم از اوست عاشقم بر همه عالم که همه عالم از اوست

أي: «أنا مبتهج بالكون لأنّ الكون مبتهج به / أنا عاشق لكل العالم لأنّ جميع

العالـم منه».

ومـا أجمـل هـذا الارتبـاط بالكـون! إنـه ارتبـاط يشـرح الصـدر، ويبـارك العمـر ويزكّيه ويرفعـه، ويجعـل العلاقـة بيـن الإنسـان والكـون علاقـة العاشـق بالمعشـوق.

ويفصـل سـعدي بيـن حديـث العشـق وحديـث العقـل، فالعشـق حديـث تضحيـة وفـداء وتحمّـل ومعانـاة وإيثـار، وحديـث العقـل حديـث مصلحـة ومنفعـة واسـتئثار وطلـب السـلامة. يقـول سـعدي:

دردیست درد عشق که هیچیش طبیب نیست گر دردمند عشق بنالد غریب نیست

دانند عاقلان که مجانین عشق را پرواي قول ناصح و پند ادیب نیست

أي: «مـا أشـدّ ألم العشـق الـذي ليس له طبيـب / و إذا ناح المصاب بالعشـق فليس ذلـك بغريـب / يعلـم العقّـال أنّ مجانيـن العشـق / لا يرعـوون لقـول ناصـح وموعظـة أديب».

وهـذا لا يعنـي أنّ سـعدي يدعـو إلـى تـرك العقل، بل يـرى أنّ عالم العشـق غيـر عالم العقـل، عالـم العشـق يتجاوز الـذات، وعالم العقل يكـرّس الذات. ولا نبالـغ إذا قلنا إنّ كلّ الذيـن بذلـوا جهودهـم مـن أجـل خدمـة البشـرية في أيّ مجـال من المجـالات هم عاشـقون. والعرفاء يرون أنّ العشـق هو النار التي تحرّك البشـرية، وهو طاقتها المحركة، ويعبّـرون عـن العقـل بأنـه الدخان المصاحـب للنار. يقـول العطار في منطـق الطير:

عشق جانان آتش است وعقل دود عشق چون آمد گریزد عقل زود

أي: «عشـق الحبيـب نـار والعقـل دخـان / وحيـن يحـلّ العشـق سـرعان مـا يهـرب العقـل».

ويقول سعدي:

حدیث عقل در ایام پادشاهی عشق چنان شده است که فرمان حاکم معزول

أي: «حديث العقل في أيام سلطنة العقل / أصبح وكأنه فرمان الحاكم المعزول»

منطـق العاشـقين غيـر منطـق الأنانييـن. والعرفـاء يـرون أنّ العاشـقين هـم أصحاب الـرأي الصائـب والنظـر الثاقـب. يقول سـعدي:

هر کسی را نتوان گفت که صاحب نظر است عشق بازی دگر و نفس پرستی دگر است

أي: «لا يمكن أن يقال عن أي شخص بأنه صاحب نظر/ فالسير على طريق العشق شيء وعبادة النفس شيء آخر».

سعدي يضع العاشق مقابل الأناني وعابد الذات، وبذلك يدعو إلى أن يكون الإنسان عاشقًا ينشد الجمال بعيدًا عن الذاتية والأنانية، مندفعًا دائمًا ليقدم الخير والعطاء للبشرية جمعاء.

٥- الابتعاد عن الهوس الديني

وهي دعوة هامة لكلّ العصور، خاصّة في عصور التحوّل واليقظة الدينيّة. فهذا التحوّل قد يشوبه خطر «الهوس الديني» بدل الوعي الديني. والهوس الديني هو الحركة على طريق عقد نفسية باسم الدين، وبذلك يسيء إلى الناس وإلى الدين. وإلى ذلك يشير سعدي في قصة أدبية طريفة ملخصها أنّ شخصًا رأى رجلاً أسود يحتضن أمرأة بيضاء في خلوة، فأخذه الرجل الهوس الديني، ورمى الرجل الأسود بحجر كي يخلّص الفتاة البيضاء منه، وإذا بالفتاة تضجّ متذمرة بأنها هي التي كانت تطلب هذا الرجل، وكان اجتماعهما عن رضًى بينهما يقول:

حكايت

١- چنين گفت پيری پسنديده دوش	خوش آيد سخنهای پيران به گوش
٢- كه در هند رفتم به كُنجی فراز	چه ديدم؟ پليدی سياهی دراز
٣- در آغوشِ وی دختری چون قمر	فرو برده دندان به لبهاش در
٤- چنان تنگش آورده اندر كنار	كه پنداری الليلُ يُغشی النَّهار
٥- مرا امر معروف دامن گرفت	فضول آتشی گشت و در من گرفت
٦- طلب كردم از پيش و پس چوب وسنگ	كه ای ناخدا ترس بی نام و ننگ
٧- به تشنيع و دشنام و آشوب وزَجر	سپيد از سيه فرق كردم چو فجر
٨- شد آن ابر ناخوش زبالای باغ	پديد آمد آن بَيضه از زير زاغ
٩- زلاحَولَم آن ديو هيكل بجَست	پری پيكر اندر من آويخت دست
١٠- كه ای زَرق سجّاده زَرق پوش	سيهكار دنيا خر دين فروش
١١- مرا عمرها دل زكف رفته بود	براين شخص وجان بَرْوی آشفته بود

١٢- کنون پخته شد لقمه ی خام من که گرمش بدر کردی از کامِ من
١٣- تظلّم برآورد و فریاد خواند که شفقت برافتاد و رحمت نماند
١٤- نماند از جوانان کسی دستگیر که بستاندم داد از این مرد پیر؟
١٥- که شرمش نیاید ز پیری همی زدن دست در سِترنا محرمی
١٦- همی کرد فریاد و دامن به چنگ مرا مانده سردر گریبان زننگ
١٧- فرو گفت عقلم به گوش ضمیر که از جامه بیرون روم همچوسیر
١٨- برهنه دوان رفتم از پیش زن که در دستِ او جامه بهترکه من
١٩- پس از مدّتی کرد برمن گذار که می دانیم؟ گفتمش زینهار!
٢٠- که من توبه کردم به دستِ توبر که گردِ فضولی نگردم دگر
٢١- کسی را نیاید چنین کار پیش که عاقل نشیند پس کار خویش
٢٢- از آن شُنعت این پند برداشتم دگردیده نادیده انگاشتم
٢٣- زبان درکش از عقل داری و هوش چوسعدی سخن گوی ورنه خموش

الترجمة

حكاية

١- قال شيخ ذكي فَطِن / وما أجمل وَقع كلام الشيوخ على الآذان!

٢- ذهبت الى هضبة مرتفعة من بلاد الهند / فرأيت رجلاً أسود بليدًا طويلاً كأطول ليالي الشتاء.

٣- وفي حضنه فتاة كشقّة قمر/تفترّ شفتيها عن أسنان كالدُرّ.

٤- وقد احتضنها بقوة في تلك الخلوة / حتى تتجسّم أمامك صورة الليل وهو يَغشي النهار.

٥- وتفجّر في نفسي هوس الأمر بالمعروف / وتحوّل الفضول إلى نار ألهبت وجداني.

٦- رحت أبحث هنا وهناك عن عصا وحجر / (وهجمت عليه وأنا أقول): يا فاقد الخوف من الله وعديم الحياء.

٧- وبالتشنيع والسبّ والضجيج والزجر / فصلت الأبيض عن الأسود كالفجر

(الـذي يتبيّـنُ فيـه الخيـط الأسـود مـن الخيـط الأبيض).

٨- وانقشـعت تلـك السـحابة المكفهـرّة مـن فـوق الروضـة / وظهـرت البيضـة مـن تحـت الغـراب.

٩- ومـن ضجيجـي فـرّ ذلـك الغـول العمـلاق /وهـذه الملائكيـة الجسـم تعلّقـت بتلابيبـي.

١٠- (وصرخَـتْ فـي وجهـي): أيهـا المتظاهـر بالزهـد فـي سـجادتك ولباسـك / أيها الدنـيء الدنيـوي المتاجـر بالدين

١١- لقد قضيت العُمرَ وأنا ولهى مغرمة / بهذا الشخص ونفسي متلهّفة عليه.

١٢- والآن وقـد نضجـت أكلتـي النيئـة / عمـدتَ إلـى أن تخرجهـا مـن فمـي وهـي حارّة.

١٣- صاحـت متظلّمـة، وولولـت وردّدت: / أيـن ذهبـت الشـفقة؟! وأيـن غـادرت الرحمـة؟!

١٤- ألا شابٌ شهمٌ / يأخذ بحقّي من هذا العجوز؟!

١٥- إنه لا يخجل من شيبته / فيمدّ يده الى سترامرأة أجنبية عنه.

١٦- وواصلـت الصيـاح وهـي ماسـكة بثيابي / وأنـا متحيّرمن العار الـذي يمكن أن يلحق بي

١٧- وانسـلختُ فـورًا مـن ردائـي كالثـوم (ينسـلخ مـن قشـره) / إذ خشـيتُ مـن لـوم الشـباب والشـيوخ.

١٨- وهربـت مـن أمـام المـرأة عاريًـا / فقـد رأيـت أن ردائـي فـي يدهـا أفضـل مـن أن أكـون أنـا فـي قبضـة يدها.

١٩- بعد مدّة مرّت بي (تلك المرأة) / (وقالت) أتعرفني ؟ قلت: حاشا الله.

٢٠- لقد تبت على يدكِ فإنني / لا ألجأ إلى الفضول بعد هذا.

٢١- لا ينبغـي لأحـد أن يفعـل مثـل ذلـك / لأن العاقـل مـن يهتـم بعملـه (ويـؤدي مسـؤوليته).

٢٢- ومـن هـذه الحادثـة تعلّمـت هـذه العظة / وهـي إني أغـضّ الطرف عمّـا ينبغي

أن أغـضّ عنه.

٢٣- وإذا كنتَ ذا عقل ورأي وتدبيروذكاء / فقل مثل ما يقول سعدي وإلاّ فاسكت.

٦- روح المواساة مع الناس

وهـذه الـروح الإنسـانية ذكرناها في خطاب سـعدي، ونراه يؤكد عليهـا في قصة قحط أصاب دمشـق، فلم يعد أي إنسـان يشـعر بلـذّة العيش أمام ما يعانيـه الناس يقول:

حكايت

١- چنان قحط شد سالی اندر دمشق — که یاران فراموش کردند عشق

٢- چنان آسمان برزمین شد بخیل — که لب ترنکردند زَرع ونَخیل

٣- بخوشید سرچشمه های قدیم — نماند آب، جزآب چشم یتیم

٤- نبودی بجزآهِ بیوه زنی — اگربرشدی دودی از روزنی

٥- چودرویش بی برگ دیدم درخت — قوی بازوان سست و درمانده سخت

٦- نه در کوه سبزی نه درباغ شَخ — ملخ بوستان خورده مردم ملخ

٧- در آن حال پیش آمدم دوستی — از او مانده بر استخوان پوستی

٨- وگرچه به مکنت قوی حال بود — خداوند جاه وزر ومال بود

٩- بدو گفتم: ای یار پاکیزه خوی — چه درماند گی پیشت آمد؟ بگوی

١٠- بغرّید برمن که عقلت کجاست؟ — چودانی و پرسی سؤالت خطاست

١١- نبيني که سختی به غایت رسید — مشقت به حدِّ نهایت رسید؟

١٢- نه باران همی آید از آسمان — نه برمی زَوَد دودِ فریاد خوان

١٣- بدو گفتم: آخرتورا باك نیست — کُشد زهرجایی که تریاك نیست

١٤- گراز نیستی دیگری شد هلاك — تورا هست، بط را ز طوفان چه باك؟

١٥- نگه کرد رنجیده در من فقیه — نگه کردنِ عالِم اندر سفیه

١٦- که مَرد ارچه برساحل است، ای رفیق — نیاساید و دوستانش غریق

١٧- من از بی مُرادی نیَم روی زرد — غم بی مُرادان دلم خسته کرد

١٨- نخواهد که بیند خردمند، ریش — نه برعضومردم، نه برعضوخویش

١٩- یکی اوّل از تندرستان منم — که ریشی ببینم بلرزد تنم

٢٠- مُنغّص بود عيش آن تندرست كه باشد به پهلوی رنجور سست
٢١- چوبينم كه درويش مسكين نخورد به كام اندرم لقمه زهرست ودرد
٢٢- يكی را به زندان برى دوستان كجا مانَدش عيش در بوستان ؟

الترجمة

حكاية

١- لقد أصاب دمشق سنة قحط وجدب / حتى أن الأحبّاء نسوا العشق.
٢- لقد بخلت السماء على الأرض حتى/ أن الزرع والنخيل لم تبتلَّ شفاهها.
٣- جفّت العيون القديمة / ولم يبق ماء سوى ماء عين (دموع) اليتيم.
٤- وإذا ارتفع دخان من نافذة / فليس ذلك سوى آهات الأرامل.
٥- والأشجار تعرّت كعري المساكين / وارتخت سواعدها وأصابتها المسكنة.
٦- لا (ترى) في الجبال خضرة ولا في المزارع غصنًا/ فالجراد أكل الزرع والناس أكلوا الجراد.
٧- في تلك الحال جئت الى صديق / لم يبق على عظامه سوى الجلد.
٨- بينما كان قويًا متمكّن الحال / وكان صاحب جاه وثروة ومال.
٩- قلت له: يا صديقي النجيب / ما الذي دهاك ؟ أخبرني.
١٠- صاح في وجهي: أين ذهب عقلك ؟ / أنت إذ تعلم وتسأل، فسؤالك ليس بصواب.
١١- ألا ترى أنّ المصاعب وصلت ذروتها / وأنّ المشقة قد بلغت نهايتها.
١٢- لا السماء تنهمر بالمطر/ ولا يرتفع (ولا يجدي) صراخ المستصرخين.
١٣- قلت له: وأنت لماذا حلّ بك ذلك ؟ / فالسمّ يقتل حين لا يكون ثمة ترياق. (القحط يقتل من لا يمتلك المال والمتاع).
١٤- وإذا هلك الآخرون مِنْ فقدان المال / فأنت تمتلك المال، فما خوف البطّ من الطوفان ؟
١٥- وبنظرة ساخطة ألقاها عليّ الفقيه / نظرة عالم يلقيها على سفيه.
١٦- (قال): وإن كان المرء على الساحل يا صديقي / لا يهنأ وهو يرى أصدقاءه

يغرقون.

١٧- وجهي مصفرّ لا من البؤس / بل إن همّ البؤساء أضنى قلبي.

١٨- العاقل لا يريد أن يرى جرحًا / لا على أعضاء الناس ولا على أعضائه.

١٩- أنا واحد من السالمين / إذا رأيت جرحًا (في شخص) يرتجف جسدي.

٢٠- يتنغّص عيش ذلك السالم / حين يكون الى جانبه متعبٌ منهك.

٢١- حين أرى أنّ الفقير المسكين يفتقد الطعام / فاللقمة في فمي سموم وآلام.

٢٢- إذا الشخص أقحمتَ أصدقاءه في السجن / فأيّ لذّة يشعرها وهو في الرياض؟

على هامش الملتقى

قبل أن أغادر طهران إلى الجزائر للمشاركة في الملتقى، اتصل بي الدكتور زعيم خنشلاوي المنسق العلمي للملتقى، وطلب منّي أن أصطحب معي «كفّ العباس»، وهي كف نحاسيّة ترمز إلى حادثة من حوادث كربلاء. استغربت من الطلب، وانتقل ذهني فورًا إلى بعض ما جاء في ورقتي إلى الملتقى، حيث ذكرت أنّ سعدي الشيرازي ينتمي إلى سلسلة «السقائين» وهي من سلاسل الفتوّة في التاريخ الإسلامي، وهذه السلسلة تنتمي إلى العباس بن علي سقّاء كربلاء!!

ثم حين وصلت الجزائر وجدت أنّ شعارَ الملتقى فارسٌ يحمل علم الجزائر ويعلوه «كف»!!

سألت عن هذا الكف فقالوا: إنه وصلنا من الدولة الفاطمية ولا نعلم عنه شيئًا.

وفي الجلسة التي ترأستها في الملتقى عُرض فيلم عن فرقة إنشاد عرفاني (صوفي) إيرانية زارت الجزائر، طُلب مني أن أوضّح الأشعار الفارسية التي انشدتها الفرقة. ثم أعدت السؤال عن الكف، وذكرت لهم أنها كفّ العباس بن علي بن أبي طالب.

سألني الحاضرون عن قصة ارتباط الكف بالعباس فذكرت لهم ما رواه المؤرخون وأصحاب السير ما ملخصه:

أنّ العباس في واقعة كربلاء (سنة ٦١ هـ) كان صاحب راية أخيه الحسين، وكان كلّما طلب البراز منعه الحسين حفاظًا على بقاء الراية. وحين أصرّ طلب منه أخوه

أن يأتي بالماء إلى النساء والأطفال، توجّه إلى نهر العلقمي فمنعه القوم، لكنه حمل عليهم وفرّقهم واتجه إلى النهر، وكان هو أيضًا يحسّ بعطش شديد. فغَرَفَ غُرفة من الماء ليشرب فتذكر عطش الحسين وأهل بيته فألقى الماء وهو يقول:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... هذا الحسين شارب المنون

والله ما هذا فعال ديني ... وبعده لا كنتِ أن تكوني

وتشربين باردَ المعين ... ولا فعال صادق اليقين

ثم ملأ القربة بالماء وأخذها بيمينه واتجه إلى خيام الحسين، لكنّ أحد أفراد جيش ابن زياد كَمَنَ له وضربه على يمينه فقُطعت فأخذ القربة باليسرى، وجاء آخر فضربه على يساره فقطعها، فأخذ القربة بفمه، لكن القوم أحاطوه من كل جانب فقتلوه وسقط على الأرض من دون يدين. فأصبحت كفّه رمزًا للفتوة والفداء والتضحية.

استنتاج

مما تقدم نفهم أنّ خطاب سعدي الإنساني ينطلق من روح «الفتوة» التي كان ينتمي إليها. ولعلّه اختار طريقة السقائين لما ترمز إليه من روح إنسانية، وتواضع إنساني لمساعدة بني البشر في محنهم. وهذا هو جوهر الدين. البذل والعطاء من أجل سعادة البشرية جمعاء.

أهم المصادر

١- فروغي، محمد علي آشتياني، عباس اقبال، كليات سعدي، انتشارات فروغي، چاپ پنجم ١٣٧٠ ش.

٢- كاشفي، مولانا حسين واعظ سبزواري، فتوت نامه سلطاني، به اهتمام محمد جعفر مجذوب، بنياد فرهنگ إيران، تهران، ١٣٥٠ش.

٣- جنيد الشيرازي، شد الإزار وحطّ الأوزار عن زوار المزار، تحقيق علامة محمد قزويني وعباس اقبال، تهران ١٣٢٨ش.

٤- كربن، هانري، آئين جوانمردي، ترجمه احسان نراقي، نشر نو، تهران ١٣٦٣ش.